الحرية والتمدن في فكر فرنسيس مراش

د. مجدي فارح

ملخص البحث

إنّ البحث في أفكار فرانسيس مراش الليبرالية التي تتصدرها مسائل الحرية والتمدن مطلب ملّح في ظلّ اخفاقات الأنا المعرفي العربي وعجزه المتواصل عن تحقيق التقدم وادراك التمدن والقطع مع التكلّس الفكري والاستبداد السياسي. وقد تفرد مراش داخل خارطة الفكر العربي الحديث، الذي انخرط في الانبهار بمنجزات الحضارة الغربية، بنقد الحداثة الغربية الناشئة آنذاك والمزهوة بانتصاراتها وفتوحاتها داخل أوروبا وخارجها، فقد كان أول من ألصق في الفكر العربي الحديث صفة التوحش بمدنية الغرب في مقالته الشهيرة "التمدن والتوحش" في إشارة إلى انحراف الغرب عن قيمه الليبرالية الانسانية وانخراطه في المشاريع الكولونيالية.

تبحث هذه الدراسة في فكر فرنسيس مراش (1836– 1874) ، المفكر النهضوي المغمور، الذي أقام كامل نظامه الفكري على الحرية باعتبارها أساس التمدن والتقدم طارحا في ستينات القرن التاسع عشر، المبادىء الأساسية لحقوق الانسان، قبل الاعلان العالمي لهذه الحقوق بأكثر من ثلاثة أرباع القرن. ظهرت أهم أفكار فرنسيس مراش في كتابة غابة الحق، الذي طبع لأول مرة في حلب سنة 1865، ومن أبرز المبادىء التي دعا إليها الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتثقيف العقول وتحسين الاخلاق والعادات وتوطيد الحق ورفض الاستبداد والتمييز الطبقي والطائفي بغاية تحقيق التمدن. أقرّ فرنسيس مراش أنّ الحرية هي السبيل الوحيد لتحقيق التقدم وادراك التمدن. وقد انطلق في استيعابه لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة وحقوق الانسان والمواطن من نظرية الحق الطبيعي التي حملتها مبادىء عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر ليؤكد خلافا للحق الوضعي الذي قام على اللامساواة أنّ العقد الاجتماعي ما بين السلطة السياسية والشعب يجب أن يستمد مبادئه من الحق الطبيعي للانسان في الحرية والمساواة.

– الكلمات المفاتيح: الحرية – التمدن – الفكر – فرنسيس مراش الحلبي– الشرق– الغرب – النهضة.

Summary of the searching: The freedom and civilization in Francis Mraash's thought

In analyzing the liberal thoughts of Francis Mraash which are presided by the freedom and civilization issues, we find an insisting claim in the failures of the cognitive Arabic ego and its continuous inability to achieve progress and realize the civilization as far as cutting with the intellectual calcification and the political tyranny. Mraash has got the uniqueness inside the modern Arabic thought which was dazzled by the achievements of the Western civilizations by criticizing the rising Western modernism which was marked at that time by its triumphs and conquests both inside and outside Europe. He was then , the first one, who , in the Arabic thought, attached the characteristic of wilderness to the Western civilization in his well-known article "The Civilization and Wilderness" , showing the Western delinquency from its liberal and human values as well as its involvement in the projects of colonialism.

This analysis goes through Francis Mraash's thought (1836-1874), the unrenowned rising thinker, who established all his speculative method on freedom considering it the basis of civilization and development. In the sixties of the nineteenth century, he introduced the principal rudiments of the Human Rights, and this, long before the International Declaration of this cause, by more than three quarters of that century. His most important ideas were found in his book "The Forest of Rights" which was first printed in 1865 in Aleppo. The political freedom, social injustice and equality were from his most emerging principles, add to them , instructing the minds, embellishing the moral ethics and cultures, consolidating the rights and rejecting tyranny as far as sectarian and class discrimination aiming by all of this at achieving civilization. Mraash approved that freedom is the only way to accomplish the development and to reach the civilization. He therefore, went on absorbing the principles of freedom, fraternity, equality and the human and civil rights, from the natural human rights' perspective which was already carried by the French enlightenment century to confirm, in contrast to the postural right which was based on the inequality, that the social contract between the political power and the people should draw its principles from the natural human right to freedom and equality.

المقدمة

لقد مثّل عالم النخبة العربية في الفترة الحديثة مجال صراع مستمر ومتوتر ومتعدد المستويات والأشكال بين سلطة الواقع والتاريخ وسلطة الآخر الغربي[i]. ولذلك يخطئ الدارس منهجيًا، عندما يحشر النهضويين العرب في القرن التاسع عشر، في زمرة واحدة متجانسة، إذ أنّهم يمثلون تيارات سياسية مختلفة، ورؤى فكرية متباينة[ii]. ولعل من أبرز هذه التيارات التيار العقلاني الليبرالي الذي نشأ لدى المثقفين العرب الذين

درسوا في الغرب أو تمكنوا من الاطلاع على الفكر الغربي الحديث والتعرف على مؤسساته السياسية ونظمه الاقتصادية والاجتماعية المتطورة فأعجبوا بها أيما اعجاب، واقتبسوها ونشروها في اقطارهم، وتحمسوا للدفاع عنها. وكان من أبرز رواد هذا التيار فرنسيس مراش (1836– 1874) وقد ظهرت أهم أفكاره في كتابة غابة الحق، الذي طبع لأول مرة في حلب سنة 1865، ومن أبرز المبادىء التي دعا إليها الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتثقيف العقول وتحسين الاخلاق والعادات وتوطيد الحق ورفض الاستبداد والتمييز الطبقي والطائفي بغاية تحقيق التمدن. تتكرر في تضاعيف كتابات فرنسيس مراش وجهازه المفاهيمي كلمات من قبيل: الحرية، التمدن، العقل، الحق الطبيعي، العقل الاجتماعي والمساواة وهي مفاهيم متصلة بالخطاب التنويري الفرنسي للقرن الثامن عشر. فقد أتقن مراش قبل رحلته إلى باريس الفرنسية ووسع من ثقافته الأدبية وانشغل ذهنه بقضايا الحرية والمدنية والعقل فمال للاقتناع بأن مدينة الغرب هي خلاص للشرق من تخلفه قبل أن يدرك زيف التمدن الغربي وطابعه الكولونيالي المتوحش.

تقود هذه الاستشكالات إلى دراسة فكر فرنسيس مراش، المفكر النهضوي المغمور، الذي أقام كامل نظامه الفكري على الحرية باعتبارها أساس التمدن والتقدم طارحا في ستينات القرن التاسع عشر، المبادىء الأساسية لحقوق الانسان قبل الاعلان العالمي لهذه الحقوق بأكثر من ثلاثة أرباع القرن. وقد ظلّت الحرية في طليعة المشكلات التي واجهت مفكري النهضة العربية نظرا لما كان سائدا في العالم العربي من استبداد سياسي وظلم اجتماعي واقصاء اقتصادي وهو ما جعلها هاجسا متكررا دائم الطرح في أعمال النخبة العربية من رفاعة الطهطاوي إلى عبد الرحمان الكواكبي وبطرس البستاني مرورا بفرنسيس مراش ورزق الله حسون[iii] وجبرائيل عبد الله دلال[iv].

1. مجدي فارح، مراجعة كتاب محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث، المقدمة، المجلة التونسية لعلم الاجتماع، تونس، العدد 2، ديسمبر 2008، ص.ص. 213-214.
2. علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة 1998-1914: الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1975.
3. رزق الله حسّون: (1825–1880) مثقف حلبي من أصل أرميني، أسس سنة 1855 أوّل صحيفة عربيّة غير رسمية في العالم العربي لتغطية أحداث حرب القرم "مرآة الأحوال". سُجن وهرب من السجن وحلّ به الترحال في آخر الأمر في لندن. يقول قسطاكي حمصي: لمّا امتدّت به النكبة ألقى عصا الترحال في بلد لندن... ولمّا يئس من العودة إلى بلاده أعاد نشر جريدته "مرآة الأحوال" وكان نشرها في القسطنطينيّة مدّة وكان يكتبها في لندن بخطّه الحسن ويطبعها على الحجر على ورق صقيل رقيق جدّاً ثم يبعث بها في البريد في غلف مختومة إلى أطراف الأرض وفيها من الفصول الشائعة ومقالات الانتقاد على سياسة الحكومة العثمانيّة يومئذٍ والتنديد برجالها والتشنيع على جور أعمالها وطرق ارتكابهم في مظالمهم ما أيقظ الجفون وحرّك السكون. ولم يزل ينشرها حتى أدركته المنون" . انظر قسطاكي حمصي، أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، حلب، المطبعة المارونية، 1925، ص. ص 8-11.
4. جبرائيل عبد الله دلاّل : (1836–1892) من دعاة الحريّة المشهورين في ذلك العصر كتب مقالات وقصائد ألهبت عواطف المثقّفين في عصره. واشتهر بقصيدته "العرش والهيكل" التي تناولت استبداد الملوك وتسلّط رجال الدين والتي أودع بسببها السجن وبقي فيه حتى وافاه الأجل. انظر قسطاكي حمصي، مرجع سابق، ص.ص. 45-52.
5.

إنّ البحث في أفكار فرانسيس مراش الليبرالية التي تتصدرها مسائل الحرية والتمدن مطلب ملّح في ظلّ اخفاقات الأنا المعرفي العربي وعجزه المتواصل عن تحقيق التقدم وادراك التمدن والقطع مع التكلّس الفكري والاستبداد السياسي.

1- فرنسيس فتح الله مراش وعصره (1836-1874)

ولد فرنسيس بن فتح الله بن نصر الله مراش بحلب في 29 جويلية سنة 1836، ابان الحكم المصري لبلاد الشام، في عائلة عريقة لها باع في الآداب والعلوم والوجاهة. كان لولادة فرنسيس مراش في حلب بالغ التأثير في تكوينه وفي اتجاهاته واختياراته فلم يكن الدور الذي لعبته حلب في تأسيس النهضة الفكرية العربية أقل بأي شكل من الأشكال من الدور الذي لعبته القاهرة وبيروت، ومع ذلك لا نجد في دراسات عديدة إشارات إلى هذا الدور إلا في الإطار العام. برزت عائلة مراش بين نصارى حلب في منتصف القرن التاسع عشر في طليعة حركة النهضة الفكرية حتى أنّ فيليب طرازي اعتبر آل مراش في منزلة اليازجين والبساتنة في لبنان والشام. يقول فيليب دي طرزاي: "كانت منزلة آل مراش بين نصارى حلب بنهضتهم الأدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كمنزلة آل البستاني وآل اليازجي في الديار الشامية، فإنّهم أيقظوا روح المعارف في أبناء وطنهم وخدموا العلوم بالتأليف والصحافة"[v].

وقد عرف والده فتح الله مراش بانفتاحه على الغرب وبنزعته الليبرالية بالاضافة إلى إلمامه بالعلوم اللغوية والأدبية. وكان أخوه عبد الله المراش (1833-1900) يتقن عددا من اللغات الأوروبية بالاضافة إلى ذلك فقد كان من أبلغ كتاب العربية على حدّ تعبير جرجي زيدان[vi]. أما أخته مريانا مراش (1848-1919) فلها مكانتها البارزة بين أعلام النهضة النسائية في العالم العربي، ويذكر فيليب دي طرزي أنها "أول سيدة سورية أنشأت مقالة في مجلة أو جريدة"[vii]. وكان بيتها أول صالون أدبي في الشرق العربي بالمفهوم الحديث[viii].

تعلم فرنسيس مراش في بداية حياته في احدى المدارس الطائفية في حلب وانكبّ على خزانة والده يطالع ما فيها من المصنفات الأدبية والشعرية والتراثية. ومن ثمّة تعلم علوم العربية وآدابها وعلى الرغم من أنّه بدأ حياته الأدبية شاعراً، فإنّه سرعان ما هجر كتابة الشعر، لينكبّ على دراسة العلوم واللغات، ثمّ على التأليف في مجالات فكرية وإبداعية مختلفة. كان فرنسيس مراش يتقن إلى جانب العربية الفرنسية والايطالية. وقد فتح له إلمامه باللغات الأجنبية عوالم ظلت مغلقة أمام كثيرين فاندفع في اكتشاف عوالم

---

[5]- فيليب دي طرزاي، تاريخ الصحافة العربية: يحتوي على أخبار كل جريدة ومجلة عربية ظهرت في العالم شرقا وغربا مع رسوم أصحابها والمحررين فيها وتراجم مشاهيرهم، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913، الجزء الثالث، ص. 82.

[6]- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال، 1973، ص. 201.

[7]- فيليب دي طرزاي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص. 241.

[8]- للمزيد من التفاصيل انظر مريانا مراش، بنت فكر، بيروت، المطبعة الأدبية، 1893، وأنطوان شعراوي، "آل المراش والصالونات الأدبية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، مجلة الضاد، حلب، العدد التاسع، سبتمبر، 1990.

الأدب ولم يقتصر عليها وحدها بل قرنها بدراسة العلوم الطبيعية فجمع بين العلم والفنّ وبين الإبداع والتفلسف[ix].

وفي الخامسة والعشرين من عمره بدأ فرنسيس مراش دراسة الطب لمدة أربع سنوات، على يد طبيب إنكليزي في حلب، ثم مارس الطب سنة كاملة بعد تخرجه (1865–1866). سافر فرنسيس مراش إلى باريس سنة 1866، وكان في البداية طالباً نشيطاً مخلصاً للغاية التي سافر لأجلها ألا وهي الحصول على الإجازة في الطب. ثم ما لبث أن خارت قواه البدنية وخبا نور بصره فما عاد يستطيع متابعة دراسته، بعد أن أصيب بشلل عصابي في عينيه أرغمه على العودة إلى حلب[x]. وفي هذه المرحلة المظلمة من حياة المراش لجأ إلى أصدقائه يملي عليهم مقالاته وخواطره، ولم تلبث أن وافته المنية في أواسط سنة 1874. كانت المرحلة التي عاشها فرنسيس مراش في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مرحلة غنى ونهوض أدبي وفكري، حيث عرفت حلب عدداً من الأدباء والمفكرين الذين أسهموا في حركة التنوير العربية[xi]. ومنهم: أنطوان الصقال، رزق الله حسون، جبرائيل دلال، نصر الله دلال، ميخائيل دلال، ميخائيل الصقال، كامل الغزي، قسطاكي الحمصي، عبد الرحمن الكواكبي، وليس من الغريب في مثل هذه الأجواء الثقافية أن ينتج مراش خلال حياته القصيرة عشرات المؤلفات. خلّف فرنسيس مراش عديد المؤلفات في الرواية والشعر والعلوم إضافة إلى عدد من المقالات في أبرز مجلات عصره مثل الزهرة والجنان. تطرقت مؤلفاته إلى مسائل فلسفية وسياسية واجتماعية من منظور ليبرالي متقدم عكس رؤيته الشامل للمجتمع والانسان. ومن أهم مؤلفاته غابة الحق سنة 1865، دليل الحرية الانسانية سنة 1861، مشهد الأحوال سنة 1870، دُرُ الصَدف في غرائب الصُدف سنة 1872 والمرآة الصفية في المبادئ الطبيعية سنة 1871. تجمع المصادر التاريخية على أنّ النهضة التي عمت بلاد الشام في القرن التاسع عشر وفي نصفه الثاني بشكل خاص كان بدءها في حلب منذ القرن الثامن عشر[xii]. عرفت بلاد الشام عامة وحلب خاصة في أواسط القرن التاسع عشر حركة نشطة أسهمت فيها الارساليات التبشيرية الغربية، التي اشتد نشاطها في أربعينات القرن التاسع عشر، اسهاما مركزيا[xiii]. بالاضافة إلى ذلك ثمة علاقة وثيقة بين الفكر الليبرالي لفرنسيس مراش والمرحلة التي عاصرها والتي شهدت بدايات تشكّل المشاريع التحديثية في العالم العربي الاسلامي[xiv].

9- للمزيد من التفاصيل انظر: كرم الحلو، الفكر الليبرالي عند فرنسيس مراش: بنيته وأصوله وموقعه في الفكر العربي الحديث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص. ص. 19-20.

10- محمد جمال باروت، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر: حلقة حلب، دراسات ومختارات، دمشق، وزارة الثقافة، 1994، ص.ص. 82-83.

11- عائشة الدباغ، الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حلب، دار الفكر، 1972.

12- يوسف فرج عماد، الحركة الأدبية في لبنان خلال القرن الثامن عشر، بيروت، دار الحداثة، 1998، ص.58. للمزيد من التفاصيل انظر أيضا موسى منير، الفكر العربي في العصر الحديث، (سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام 1918)، بيروت، دار الحقيقة، 1973.

13- فلاديمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية، موسكو، دار التقدم، 1971، ص. 157.

14- وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، سلسة أطروحات الدكتوراه، 13، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988، ص. 15.

تمثّل التوجه الليبرالي في مشاريع الإصلاح السياسي والإداري المعروفة بالتنظيمات العثمانية الهادفة للردّ على التحديات التي طرحتها المواجهة مع الغرب في ظلّ تفاقم المطامع الكولونيالية والهزائم العسكرية والتي كان أشدّها احتلال مصر سنة 1798. تميزت مرحلة التنظيمات بظهور اتجاه ليبرالي في تركيا تجسد في أواسط الستينات من القرن التاسع عشر بتشكل حركة بين الضباط والموظفين والمثقفين عرفت بالعثمانيين الجدد وقد طرحت هذه الحركة عدّة مبادىء تنويرية. وكانت على علاقة بالمتنويرين العرب وخاصة من النخب المثقفة المسيحية الذين حضوا برعايتها ودعمها[xv].

عبرت رواية غابة الحق، التي نشرت بحلب سنة 1865 لفرنسيس مراش، عن صياغة منظومية مبكرة لمبادىء التنظيمات في ضوء نظريتي "الحق الطبيعي" و"العقد الاجتماعي" خصوصا ومفاهيم ومقولات عصر الأنوار للقرن الثامن عشر عموما. ورغم أنّ مراش لم يكن "عثمانيا جديدا بالمعنى التنظيمي لجمعية "العثمانيين الجدد" فإنّ الروح العثمانية الجديدة، التي غذّت وعي جيله، توجه هذه المعالجة إلى حدّ بعيد وتتجلى في شكل دفاع راسخ عن وحدة الدولة متعددة القوميات وحماية استقلالها الوطني من "التدخل الأجنبي" على حدّ تعبيره. وقد اعتبر مراش أنّ الاستقلالية هي أحد أهم تمظهرات الحرية التي شكّلت أبرز المفاهيم التي شغلت فكره وضجّت بها كتبه ومقالاته وقصائده.

2–الحرية في فكر فرنسيس المراش

أثّرت الظرفية الفكرية من تاريخ بلاد الشام إبان عصر النهضة التي عاصرها فرنسيس مراش في تشكّل عقليته الليبرالية ومن ثمة في طرحه لمسألتي الحرية والتمدن، وفي تصنيفه للحريات كالحرية الطبيعية والحرية السياسية والحرية الاجتماعية، والحرية الدينية، وفي رفضه للرق، وفي دعوته لاحترام حرية المرأة[xvi]. وقد تعمقت أفكاره باتجاه تمجيد مرجعية العقل الإنساني ومكانته ودوره في تأويل الحقائق الدينية وتعليلها لتحقيق جملة من المبادئ التي تعترف بحقوق الإنسان وضرورة مراقبة السلطة السياسية وتنزيه الدين عن الأغراض السياسية والتوجه إلى دراسة الطبيعة وقوانينها والإقرار بدور الأكثرية البائسة في المجتمع ومعاملة المرأة بما يليق بمكانتها في الأسرة والمجتمع[xvii]. تأثر مراش بالأفكار التي نادى بها نهضويو القرن التاسع عشر المعاصرون مثل رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني. أما التأثر الأكبر والأساسي في فكر مراش الليبرالي فيعود إلى فكر التنوير الفرنسي وبالتحديد إلى روسو ومونتسكيو اللذان تأثر بهما وأعاد انتاج مقولاتهما في العقد الاجتماعي والحرية والمساواة والحق الطبيعي والموقف من الرقّ والعبودية والعمل من أجل ما اصطلح على تسميته بالصالح العام أوخدمة الشعب[xviii].

---

[15]- ليفين، الفكر الاجتماعي والسياسي في لبنان، سوريا ومصر، ترجمة بشير السباعي، بيروت، دار ابن خلدون، 1978، ص. 13.
[16]- كرم الحلو، مرجع سابق، ص. ص. 19-20.
[17]- نفس المرجع، ص. 68.
[18]- نفس المرجع، ص. 24.

أقرّ فرنسيس مراش أنّ الحرية هي السبيل الوحيد لتحقيق التقدم وادراك التمدن وقد طرح عدّة أشكال من الحرية، أولها الحق الطبيعي أو الحرية الطبيعية التي رأى انّها مستحيلة لأنّ الانسان لا يستطيع ان يتحرر من قيود الكائنات المحيطة به في عالم تتحكم فيه موازين صارمة، وهو كائن مادي بيولوجي يشكّل جزءا من الطبيعة يجري عليه ما يجري عليها من قوانين. ولكن استحالة الحرية الطبيعية لا يمنع امكانها ادبيا بل هي أدبيا واجبة وضرورية، وتقوم بابطال دولة العبودية لتقيم دولة التمدن والصلاح الذي هو عين الحرية. وقد انطلق مراش في استيعابه لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة وحقوق الانسان والمواطن من نظرية الحق الطبيعي التي حملتها مبادىء عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر ليؤكد خلافا للحق الوضعي الذي قام على اللامساواة أنّ العقد الاجتماعي ما بين السلطة السياسية والشعب يجب أن يستمد مبادئه من الحق الطبيعي للانسان في الحرية والمساواة[2].وقد اعتبر فرنسيس مراش أنّ ثاني أنواع الحرية هي الحرية السياسية التي اعتبرها حقا طبيعيا لا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال ويجب أن يكفل للإنسان حق مراقبة السلطة السياسية وتقيدها بقوانين عادلة تحفظ الصالح العام وتؤمن حرية الرأي والتعبير وتضمن المساواة الكاملة أمام القوانين ولذلك ندّد بالاستبداد السياسي ورفض السلطة المطلقة التي تنفرد بالرأي وتستبد بالعقول[3]. وثالثها الحرية الاجتماعية التي تقوم على المساواة بين مختلف طبقات المجتمع في حق العيش وبالتاي تساهم في تخفيف التناقضات الاجتماعية الصارخة التي كان ينوء بها كلكل عصر فرنسيس مراش. الملاحظ أنّنا كثيرا ما لمسنا في أعماله ميلا إلى الطبقات الكادحة في المجتمع مما دفع بعض الدارسين إلى التأكيد على تأثره بالفكر الاشتراكي[4].

اعتبر فرنسيس مراش أنّ أكبر تحدّ يواجه المجتمعات الشرقية يكمن في طريقة الانتقال والتحول من المجتمع القروسطي إلى المجتمع المدني أو التحوّل بتعبيره من مملكة التوحش والعبودية إلى مملكة التمدن والحرية[5]. لقد كان مراش يسعى ويتطلع إلى دولة حديثة تقوم على المساواة السياسية وحرية الرأي والتعبير، ويكون فيها للجميع حق المشاركة في اختيار السلطة المناسبة ومراقبتها من دون تمييز أو استبعاد لأي فئة من الناس. هذه المبادئ والأسس تتناقض جذرياً مع الدولة الاستبدادية التي تكرس السلطة المطلقة، وتقسم الناس إلى فئات متمايزة في المواطنة والحقوق السياسية[6]، يقول فرنسيس مرا

20- جمال باروت، مرجع سابق، ص. ص. 75-78.
21-سامي الكيالي، الأدب المعاصر في سوريا، 1850-1950، القاهرة، دار المعارف، 1959، ص..44
22- فرنسيس مراش، التمدن المتوحش، بيروت، مجلة الجنان، 1870.
23- كرم الحلو، مرجع سابق، ص.108.
24- فرنسيس مراش، رحلة باريس، بيروت، المطبعة الشرقية، 1867، ص.113.

في رحلة باريس: "رأيت الغني يأكل قوت الفقير ويجني ثمرة أتعابه لكي يشبع بطنا عديمة الشبع. رأيت جميع خيرات الأرض وثروتها مملوكة من نزر من المغتصبين وبقية ألوف الألوف متمرغين في أوحال الشقاء وعديمي كل نعمة وخير"[7]. وقد تبنى مراش هذه الآراء والمواقف بعد رحلته الباريسية وهو مايجعله في مقدمة رواد النهضة العربية الحديثة الذين تلمسوا الأسباب الاقتصادية للتفاوت الاجتماعي. ولئن عبّر عن وعي اقتصادي متقدم بمسائل التفاوت الاجتماعي داخل المجتمعات الحديثة فإنّه لم يقدم حلولاً جذرية لهذه المشكلة، فالحلّ الأنسب الذي يمكن استخلاصه من مؤلفاته، يقوم على الإقرار بالمساواة بين الجميع في الحقوق السياسية وتقليص الفروق الاجتماعية الحادة بتعاطف الأغنياء مع الفقراء ومؤازرتهم[8].

أما رابع هذه الأشكال من الحرية فقد حدّدها مراش في حرية المعتقد، وقد اتخذت الحرية الدينية في فكره أبعادا هادفة إلى التحرر من التعصب الديني والطائفي وعدم تسخير الدين لخدمة أغراض خاصة بالاضافة إلى ذلك فقد أقرّ مراش بمركزية العقل والعقلانية في تأويل النصوص ليؤكد على قدرة العقل البشري على تأويل المسائل التي لا يوجد لها تحليل في كتاب منزل أو في اجماع موثق. وبذلك يقع مراش في طليعة النهضويين العرب المنادين بمرجعية العقل حتى في الأمور الدينية لأنّه يجعل من العقل الانساني الفيصل في عملية تأويل الحقائق الدينية وتعليلها. وخامسها رفضه المطلق للعبودية والرق من منطلق ايمانه بحرية الانسان الأدبية وبحقوقه الطبيعية. وفي روايته غابة الحق نقف على دفاعه المستميت عن مسألة الحق الطبيعي للانسان في الحرية والمساواة حيث يقول: "فمن المعلوم لدى العموم أنّ الطبيعة البشرية قد خلقت في كمال الحرية الأدبية ... فمن أين يصوغ لبني هذه الحرية الانسانية أن يبيحوا تمزيق جلبابها بأنياب الأغراض لبعضهم البعض"[9]. ويخاطب مراش "ملك العبودية": "كم يكون خشنا بربريا من يتعاطى بيع أو مشترى أشباهه في الطبيعة وعدلائه في الحدّ والرسم. وكيف يمكن للانسان الطبيعي أن يشاهد إنسانا نظيره مغلولا بقيود التعبد والأسر ولا يجم غضبا... فهات أعرب لنا أيها السيد عن الامتياز الطبيعي الحاصل بينك وبين عبدك البائس وقل لنا ما هو الفرق بينكما... فمن أين أبيح لك مشترى الانسان وعذابه وقهره يا أيها الظالم العنيت وكيف تمكنك الطبيعة الإنسانية من مجاوزة حدودها وشرائعها بهكذا أفعال شريرة"[xix]. ومن ثمة لم يتردد فرنسيس مراش في ضوء ايمانه بنظرية الحق الطبيعي في وصف المفاهيم اللاهوتية عن "أنّ الله قد خلق مولى وخلق عبدا وأنّ الكتاب نفسه قد أمر بطاعة العبد لمولاه وصرح بدعوى هذا ودعوى ذاك بأنّها مفاهيم لا تطاق وأنّها كالفشار الأعمى ومن

5[2]- كرم الحلو، مرجع سابق، ص..118

6[2]-- فرنسيس مراش، غابة الحق، حلب، المطبعة المارونية، 1865، ص. ص. 123-.124

[2]7- نفس المرجع، ص. ص. 126-127.
[2]8- نفس المرجع، ص.129

هنا فكل الأنام سواء من الملوك إلى رعاة البهائم"[xx]. لقد كان المنطق الأساسي للحرية الطبيعية في فكر فرنسيس مراش ينطلق من فرضية أنّ الناس يولدون متساوين وأحرارا، وأنّ أصل العبودية واللامساواة هو اجتماعي وليس طبيعيا. أما سادس أنواع الحريات فهو حرية المرأة، التي وإن لم يجعلها مراش صنوا موازيا مساويا للرجل، فقد دعا إلى معاملتها بما يتلاءم ولطف جوهرها ونبل مكانتها في المجتمع. ومن ثمة أكد مراش على حق المرأة في التعلم والتربية وفي اختيار شريك حياتها. وهو بذلك متقدم على أطروحات جبران خليل جبران وقاسم أمين بتشديده على صون كرامة المرأة واحترام دورها في المجتمع وحقها في التعلم والتفكير بما يحقق حريتها ويكفل تمدن المجتمعات وتقدمها[xxi]. ومن ثمة فإنّ الحرية والتمدن أمران متلازمان في نظرة مراش للحياة، فالتمدن والحرية هما في آن واحد دولة العقل والعلم والحرية والإيمان والأخلاق، فالعقل يؤكد الحرية الإنسانية، أما الحرية فهي شرط تقدم العقل وارتقائه. ثمة تلازم في فكر مراش بين دعائم الحرية والتمدن فكل دعامة من هذه الدعائم فاعلة في غيرها منفعلة بها في تآلف وانسجام يؤديان في النهاية إلى الانفلات من عبودية التوحش واستبداد الجهل ومن ثمة إلى قيام دولة التمدن والحرية السياسية والعدالة الاجتماعية. لقد حفلت آثار فرنسيس مراش بهذه الأفكار التي تبوىء الحرية المركز والصدارة داخل المجتمع المتمدن المنشود منذ أول مؤلفاته دليل الحرية الانسانية الصادر سنة 1861. تقوم مسألتا الحرية والتمدن في فكر المراش على المبادىء والأسس التالية والتي يمكن استخلاصها من مجمل مؤلفاته وقصائده ومقالاته:

– الحكم العادل والمساواة بين جميع المواطنين دون تميز أو تفريق لتحقيق الصالح العام وذلك "بتمهيد سبل العلوم وتسهيل طرايق التجارة وتقوية وسايط الصنايع والاشتغال ومساعدة الزراعة والفلاحة وقطع أسباب التعدي"[xxii].

– تقديم الرابطة الوطنية على الروابط القبلية والطائفية وكان مراش يعتدّ بعروبته وهو أول من نادى بالانتقال من ثقافة وتعصب الملّة إلى الدفاع عن ثقافة الأمة. إنّ مسألة انتشار التمدن في مجتمع "مملكة التوحش والعبودية" مرتبط بتحوله من مجتمع طائفي إلى مجتمع مدني. وقد رأى مراش أنّ حلّ هذه المسألة ممكن بواسطة تطبيق "شرائع التمدن وقوانينه"[xxiii]. من هنا يدعو بلاده ويخصّ العرب فيها إلى "محبة وطنية منزهة عن أغراض الدين"[xxiv] وهو ما يعني استبدال "حبّ الملة" أو "الرابطة المللية" "بحبّ الوطن" أو "الرابطة الوطنية". إذ أنّ "حبّ الوطن" على حدّ تعبيره هو الأساس الأول للتمدن، الذي به " صعدت الأمم الغربية إلى أعلى طبقات الشرف الإنساني"[xxv].

[2]9- مريم سليم وآخرون، المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999.
[3]0- فرنسيس مراش، غابة الحق، مرجع سابق، ص..78
[3]1- نفس المرجع، ص. .69
[3]2- نفس المرجع، ص..183

[3]- فرنسيس مراش، دليل الحرية الانسانية، حلب، 1862، نقلا عن عائشة الدباغ، الحركة الفكرية في حلب، ص. 131.
[4]- نفس المرجع، ص.133.

ويعني التحول هنا من مملكة التوحش والعبودية/المجتمع القروسطي/المجتمع الطائفي إلى مملكة التمدن والحرية/المجتمع المدني/المجتمع الحديث وانتقال العرب من جنس تحكمه التناقضات "الفسيفسائية القبلية والملية والطائفية" إلى هيئة اجتماعية" على حدّ تعبير مراش[xxvi].

– رفض كل ما يتعارض مع حقوق الانسان الطبيعية في الحرية والعيش والكرامة والتفكير والمعتقد ومن ثمة جمع مراش بين الحقوق الطبيعية ومقومات الحرية الانسانية وما يتعلق بها من شروط الاستقلالية.

– الاهتمام بالعلوم ومحاربة الجهل الذي عدّه مراش نبراس الممالك المتوحشة في مقابل العلم نبراس الممالك المتنورة التي تعتمد العقلانية لمحاربة الأوهام والخرافات[xxvii]. اعتبر مراش أنّ القرن التاسع عشر قد احتلّ الصدارة بين القرون كلّها بفضل العلم الذي "مهّد له المسالك وأوصله إلى ذلك... بفضل العلم تقدمت جيوش العلم الزاهية ممتطية متون الاختراعات البديعة والمعارف الكاملة متنورة بأنوار أسلحة الحكمة والعدل ومتدرعة بدروع الحرية الإنسانية"[xxviii]. أما الجهل فقد عدّه مراش "آفة الانسان"[xxix]. فهو "قاعدة التوحش ودعامته وعلامته ورايته"[xxx]. ينقل لنا مراش موقفه المنتصر لسلطة العلم في المحاورة المتخيلة التي جمعت العقل بالحق في روايته سياحة العقل والتي نشرت في مجلة الجنان سنة 1871:

"...لحق العقل بالحق وسارا معا حتى بلغا قمة عالية وأشرفا على جميع النواحي وهناك أطلّ العقل فرأى أرضا واسعة وظلاما مخوفا يعتكر ويدلهم عليها سحابا ناريا يظللها وأصواتا هائلة تندفع من جوف ذلك الظلام. فلبث العقل مذعورا من هذا المشهد الذريع وقال ما هذا المنظر الجهنمي. فأجاب الحقّ أنّ هذه الأرض التي تراها هي العالم المأهول وهذا الظلام هو الانقياد والجهل وذلك السحاب الناري هو زفرات الذين يهيمون في عشق الحقيقة ويطلبون وصالها ولا يمكنهم من ذلك رقباء الأباطيل"[xxxi]. تظلّ هذه الدعائم متلازمة فيما بينها في فكر مراش فكل دعامة ترتبط بالأخرى ارتباطا عضويا ولكن الحرية تظلّ هي الدعامة الأولى والمركزية بين دعائم التمدن التي طرحها مراش في سياق رؤيته الليبرالية لمستقبل المجتمعات العربية شرط التحرر من الجهل الذي اعتبره مراش "قاعدة التوحش ودعامته وعلامته ورايته. وما الانسان إنسان إلا بالعلم ووحش ضار بالجهل الملم، فالجهل عثرة السائر ووعكة الحائر وعماء الناظر وتيه الضائع وصمم السامع وأينما حلّ حلّت الملائح ونزلت القبائح وسقط الغار ونهض العار وسكتت صوادح الفكر ونطقت جوارح العيّ والحصر ونكس رأس المعلوم والمقبول وشمخ أنف المجهول والمرذول ووقح الأجدع وتسلح الأكتع وسبق ذو القزل وأصاب ذو الشغل واغتنى اللئيم وافتقر الكريم ...وتتوج رأس السير وتقيدت أرجل الأمير. على أنّ الجهل هو مصيبة الجاهل وعطشه في المناهل ومع

[5]- كرم الحلو، مرجع سابق، ص. 21.
[6]- فرنسيس مراش، غابة الحق، مرجع سابق، ص. 4.
[7]- فرنسيس مراش، مرآة الحسناء، بيروت، مطبعة المعارف، 1872، ص. 300.
[8]- فرنسيس مراش، مشهد الأحوال، بيروت، المطبعة المارونية، 1870، ص..56

[3]9- فرنسيس مراش، سياحة العقل، الجنان، المجلد الأول، السنة الأولى، الجزء الثاني، 15 نيسان، 1871، ص.ص. 269-273.

ذلك فلا يبرح الجاهل صاحب الفرح عدو الترح ساكن البل رائق الحال مرتاح اللب، خالي القلب، يبسم مدى الدهر ويقهقه في كلّ أمر ولا يعبأ بالحال ولا يفكر إلا بالمحال فتراه هائما بالأموال وضاربا في وادي الآمال، يتوقع المراتب ولو بعدت عنه ويستعطف المناصب ولو نفرت منه ويستحب الباغض ويستفتح القابض وربما تقلّد السيف وهو الجبان وطلب الكرامة وهو المهان"[xxxii].

3- التمدن والعلاقة مع الغرب عند فرنسيس مراش

مثّلت مسألة التمدن والعلاقة مع الغرب من أبرز الأسئلة التي تطارحها رواد النهضة العربية، فالهاجس آنذاك كان متمركزاً في الرغبة في تخطي حالة الانحطاط المهيمنة على العالم العربي ومواجهة التحديات السياسية والاجتماعية والحضارية التي طرحها الغزو الاستعماري الغربي بدءاً من حملة نابليون على مصر (1798-1801)[xxxiii]. وقد شكّلت حملة نابليون بونبارت على مصر (1798-1801) حقل الأسئلة اللامتوقعة الذي ولد فيه المثقف العربي الحديث بعد أن كشفت عن تخلّف الشرق وتقدّم الغرب. وكانت الأسئلة القسرية، التي فرض المستعمر صيغها وألزم المهزوم بإجابات لم يتعوّد عليها، انطوت الأسئلة القسرية على التشكي والحيرة وعلى فضول يعاند عادات الفكر ولا يستطيع أن يتحرّر منها [xxxiv]. وقد تحوّلت الصحافة العربية طوال القرن التاسع عشر إلى محطة انذار[xxxv]. فهذا سليم البستاني يكتب في مجلة الجنان عن "لماذا نحن في تأخر؟" وهذا عبد الله النديم يتساءل في مجلة الأستاذ "بم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد؟" ويتطارح شكيب أرسلان التساؤل الشهير الذي لا يزال ينير عتمة الكتابات العربية إلى اليوم: لماذا تقدّم الغرب وتخلّف الشرق؟[xxxvi] كان هاجس فرنسيس مراش الرئيس يكمن في التفكير في أفضل السبل للنهوض بالمجتمعات العربية وخاصة في تحويلها من الطور القروسطي المكون من "مجموع من كل قبيلة وملّة تحت السماء"[xxxvii] إلى مجتمع الرابطة الوطنية الذي تسوده "شرايع التمدن"[xxxviii]. لذلك شكّلت مسألة التمدن قضية محورية في كتاباته. يربط مراش بين التقدم وادراك التمدن في التنظيمات والقوانين الكفيلة باصلاح أحوال المجتمعات،

---

[4]0- فرنسيس مراش، العلم والجهل، نقلا عن جمال باروت، مرجع سابق، ص.ص.193-194.

[4]1 - Majdi Fareh, *Confrontations et rencontres culturelles entre l'Orient et l'Occident en Egypte : de la Révolution et de l'expédition françaises à la renaissance égyptienne (fin XVIIIème - milieu XIX ème siècles),* Fichier national de reproduction de thèse, ISSN : 0294-1767, 431 pages, Université de Lille III, 2006.

[4]2- Majdi Fareh, *Les Egyptiens et les Lumières pendant l'expédition de Bonaparte*, Mémoire de DEA en Histoire, Université de Rouen, 2000, pp .11-12.

[4]3- تعد الصحافة من أهم الوسائل التي اعتمدها رواد النهضة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نشر الوعي بالأزمة العربية الاسلامية. نذكر منها على سبيل المثال صحيفة (الجنان) لبطرس البستاني في بيروت (1870) أو (النحلة) التي أصدرها لويس صابونجي في بيروت ، والمقتطف.. وصحف العديد من المفكرين والصحافيين السوريين واللبنانيين الذين وفدوا إلى مصر بعد أن تعرض المسيحيين لمذابح عام 1860 الذين عرفوا في مصر باسم (الشوام) " مثل سليم نقاش، وميخائيل عبد السيد، وسليم العنجوري، ويعقوب صروف، وفارس نمر، اللذين أنشآ مجلة المقتطف (1876-1952) وهي مجلة تهتم بعلوم الغرب بهدف نشر المعرفة العلمية. للمزيد من التفاصيل أنظر السيد سمير عبد المقصود، الشوام في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2003.

[4]4- صالح زهر الدين، "نهضوية الأمير شكيب ارسلان"، الفكر العربي، العددان 39 - 40، سنة 6، 1985، ص. 170.

[4]5- فرنسيس مراش، غابة الحق، مرجع سابق، ص..69

[4]6-نفس المرجع، نفس الصفحة.

وقد اعتبر أنّ للتمدن دعائم أربع لخصّها في تهذيب السياسة وتثقيف العقول وتحسين العوائد والأخلاق وصحة المدينة[xxxix]. وهي ذات الدعائم التي يعاود طرحها وتعليلها في كتابه مشهد الأحوال قائلا عن التمدن: " ولما احتاج الانسان إلى لوازم الحياة الاجتماعية، وبواعث السكنى الانتظامية أفضت به الضرورة إلى التمدن والألقاب ولجم الطبيعة بالآداب ليحسن نظام الجماعة في سلك الاتصال وتتسهل سبل الأفعال والأعمال وتتميز الأشخاص مجتمعة وتتهذب الأطباع المندفعة"[xl]. وقد أطنب مراش على غرار باقي رواد النهضة العربية ممن سبقوه إلى زيارة المدن الأوروبية وخاصة باريس[xli] في وصف مظاهر التمدن العمراني والتقدم الاقتصادي والعدل الاجتماعي ولكنّه تميز عنهم بالنفاذ إلى سبل هذا التمدن وجوهره الذي جعله رهين اعمال العقل واطلاق ملكات الفكر والابداع والاجتهاد وهو ما نلمسه في قوله المُمجد للساعد والفكر "فما للكلل هناك موضع ولا للملل موضع... وما للأفكار تثاؤب على الأفواه أو نوم في أعماق الرؤوس، هنالك الجميع يسابقون في ميادين التقدم والفلاح ويكافحون بأسلحة المغايرة"[xlii]. لقد شهدت صورة الغرب في كتابات الرحالة العرب تبايناً ملحوظاً، فهناك من انبهر بمنجزات الغرب انبهاراً شديداً إلى حد الدعوة إلى التغريب، أي الأخذ بمظاهر حياة المجتمع الغربي ونقل أفكاره ووسائله التقنية، إذ أراد العرب إصلاح تخلفهم واللحاق بركب الحضارة العصرية، وعلى العكس منهم كان هناك من حارب هذه الدعوة وذكر بضرورة العودة إلى التراث والتمسك به. وقد اقترب فرنسيس مراش في رحلته الباريسية من الدعوة الأولى من منطلق إصلاح الواقع المعيش إذ نجده قد بُهر في البدايات بإنجازات الغرب العمرانية، وتوافق الحضارة الغربية مع أسس ومبادئ التمدن كما تصورها، ورأى في باريس فردوساً أرضياً، فهي مصبّ أنهار العجائب، وموقع أنوار التمدن والآداب، فيها العمران يتجلى في أروع صورة، إنْ من حيث النظافة والترتيب والإتقان في شوارعها، أو من حيث الراحة والثروة والأمن والأمان في ربوعها، حيث الكل مقبلون على العمل والإبداع والاختراع دونما كلل أو ملل"[xliii].لم يستطع مراش أن يخفف من انبهاره بما شاهد عليه باريس من تقدم وحضارة وعمران وبناء وجد وعمل وحركة دؤوب وعدل وعقل وتمدن وأخلاق وحرية، كلها مفردات عجت بها رحلته، فلم يتوقف عن توظيفها وصقلها وعرضها أمام القارئين ليندهشوا لدهشته أمام مظاهر التفوق الغربي في ميادين العلوم والصنائع وفي كل نواحي التمدن والتقدم. لقد أظهر المراش في رحلته إلى باريس إصراراً على طرق معالم هذه الحضارة رابطاً هذه المعالم بالفكر الغربي وأصالته وفي ذلك يقول:

47- نفس المرجع، ص..111.
48- فرنسيس مراش، مشهد الأحوال، مرجع سابق، ص. 17
49- خليل الشيخ، " صورة باريس في الأدب العربي الحديث"، عالم الفكر، السنة 19، العدد 2، 1988، ص.
50- فرنسيس مراش، رحلة باريس، مرجع سابق، ص.72.
51- نقلا عن كرم الحلو، مرجع سابق، ص. 21.

إلى جنة الفردوس هل أنا سائر ترى أم إلى دنيا أخرى مسافرُ
فيا حسن هذا السير والركب ويا لطف أرضٍ كللتها المفاخر
هنا تصدع النعمى، هنا يرقص هنا تبسم الدنيا، هنا الخط حاضر
هنا النفس تخلو في هواجس سِرها فتوحي بما تصبو إليه الخواطر[xliv]

في هذه المرحلة من فكر مراش مثّل الشرق والغرب طرفي ثنائية التوحش/التمدن أو النور/الظلام أو الصحراء/الجنة لينخرط على غرار جلّ رواد النهضة في مأزق المقارنة بين واقع التقدم والتمدن الغربي مقابل التأخر الشرقي والفوات التاريخي العربي[xlv]. وقد ردّ مراش ذلك إلى عدّة عوامل أبرزها سيادة العقلانية في الغرب في الفكر والسياسة والاجتماع والمعرفة[xlvi]. في حين فشلت الاصلاحات في تحويل الدولة العثمانية من دولة السلطان إلى دولة التنظيمات الحديثة بل أعادت انتاج مملكة التوحش والعبودية وموهتها بقشور تحديثية ينهض فيها ملك التوحش منتحلا زي ملك التمدن ولم تفض إلى التقدم بل إلى إعادة انتاج التأخر ولم تعزز وحدة السلطنة واستقلالها الوطني بل حولتها إلى دولة شبه مستعمرة تئن تحت نير التسلط الأجنبي على حدّ تعبير مراش. ولم تساو ما بين القوميات والأمم بل أثارت الحقاد القومية والطائفية فيما بينها وداخل الأمة الواحدة نفسها[xlvii]. في مقابل ذلك تدعمت الرابطة الوطنية في الغرب بسبب غياب النزاعات الأهلية والطائفية. يقول مراش عن المجتمع الفرنسي: "الأمة الفرنساوية تتموج على بعضها كقصعة واحدة بدون نزاع في جزئياتها ولا انقسام في كلياتها، سابحة في بحور الأمن والسلام، رافلة بأذيال الحرية الكاملة بدون خشية من التعثر بأشواك سيادة بربرية أو سلطة ضارية... بدون قلق من وقوع سيوف سافك دماء أو انتشار نار خيانة لابسة ثياب الدين والدنيا... ولا ذعر من سطوات شريعة مارقة ... وهكذا فكم تستميل الانسان هذه الديار التي تمنح عناء غير مسلوب وأمن غير ملثوم وحرية غير مأسورة وحياة غير مهددة ولا مذعورة"[xlviii]. ولكن هذه الصورة الزاهية الباهرة أخذت في التحول والتبدل منذ السنة الثانية لاقامته في باريس فلم تعد عنده الجنة التي تراءت له في البدء بل أصبحت تمثّل عنده القهر والعذاب والاغتراب. وقد ذهب البعض إلى الاعتقاد بأنّ هذا التحوّل في موقف مراش إلى تدهور وضعه الصحي، ما جعل الدنيا تتراءى له قاتمة سوداء، ويغلب عليها القنوط واليأس والتشاؤم. لكن مقالات مراش في الجنان بعد عودته من باريس وقصائده في مرآة الحسناء تكشف أنّ ثمة أسبابا فلسفية وسياسية واجتماعية تقف كلّها وراء انقلاب موقف المراش من الغرب. فلا يمكن فصل التبدل الحاصل في فكر مراش وموقفه من التمدن الغربي عن الأحداث التاريخية التي عرفتها أوروبا

---

[5]2- فرنسيس مراش، رحلة باريس، بيروت، المطبعة الشرقية، ص.ص. 37-39.
[5]3- مجدي فارح "تطويع اللغة والاصطلاح لخدمة النهضة والإصلاح: دراسة في تجربة الترجمة عند الطهطاوي"، مجلة *المشكاة*، جامعة الزيتونة، العدد السادس، 2008، ص.ص. 145-146.
[5]4-كرم الحلو، مرجع سابق، ص. 179.
[5]5- جمال باروت، مرجع سابق، ص. 81.
[5]6- فرنسيس مراش، رحلة باريس، مرجع سابق، ص.34.

عامة وباريس خاصة في نهاية الستينات وأول السبعينات من القرن التاسع عشر. في هذه الحقبة اشتعلت الحرب البروسية الفرنسية (1870–1871) واجتاحت الجيوش البروسية عدّة مناطق من فرنسا وحاصرت باريس بداية من شهر مارس سنة 1871 وأقام العمال حكومة ثورية بعد انشاء كمونة باريس[xlix]. وهو ما جعل مراش يرتد عن مواقفه المبدئية الممجدة للغرب ولتمدنه، ومن ثمة كشف عن نقائض المدنية الغربية ومفارقاتها عندما شاهد حريق باريس ومشاهد الدماء والدمار والاعدامات الفظيعة وما رافقها من نزاعات دموية[l]. يقول مراش أنّ الأوروبيين قد أصبح همهم " تعداد ما عندهم من عدة الفتك والذبح فيقولون عندنا كذا من الكتائب والفيالق، وكذا من المدافع والبنادق ولنا بوارج للهدّ والهدم وأبراج للصدّ والصدم، فياليت شعري ماذا أقول عن تمدن أصبح فيه سفك الدماء أهون من سكب الماء"[li]. ففي هذا الاطار التاريخي بالذات كتب في الجنان مقالات "سياحة العقل" و "يوم باريز" و"التمدن المتوحش" وقصائد "العرب والافرنج" و"قالوا تمدنت الدنيا" و"نبوءة الماضي" التي عبّر فيها عن خيبته بما آل إليه تمدن الغرب من حروب وسفك دماء وجشع وفقر، بما بات يهدد الانسانية بالشقاء. وفي ذلك يقول: "بئس التمدن الذي به قد أصبح الانسان وهو على شأو الانسانية أوحش الوحوش وأفظع الحيوانات بل صار يجب عليه أن يتخذ الوحوش الغازية نموذجا له في سلاستها وأناستها عندما تكن آمنة في أغوارها وراقدة في أوكارها"[lii]. بدا للمراش أنّ الانسان في حالته الطبيعية أكثر أمنا وسلاما، وعاد يمتدح الحياة الطبيعية ما قبل المدنية والثناء على فضائل العرب في مقابل لؤم الغربيين وحقدهم وجشعهم. ولكنّه مع ذلك ظلّ على حماسه لانجازات التمدن الغربي العلمية والثقافية وايمانه بالتقدم الذي تحقق في القرن التاسع عشر "سلطان القرون"، على حدّ تعبيره. عبّر مراش في هذا الموقف عن رؤية متقدمة متنورة فلم يذهب ازاء انحراف الغرب عن القيم والمبادىء الليبرالية إلى حدّ إدانة الليبرالية ذاتها ورفضها، بل بقي الفصل واضحا لديه بين الغرب الليبرالي التنويري والغرب الكولونيالي. إنّ رفض مراش للغرب الاستعماري لم يمنع استيعابه العميق للغرب العقلاني إذ رأى المجتمع المدني تعبيرا اجتماعيا عن قوانين العقل فقد فسّر مراش مدنية الغرب بانّها نتيجة ما بلغ إليه العقل من التقدم والنجاح لقلب ممالك الظلام، يقول فرنسيس مراش: "لقد أضاء عالم العقل وتمزقت سجون الظلام وانقلبت ممالك الأباطيل والأضاليل وانحطت العبودية... وارتفعت الحرية على أوج الوجود ... فأي قوة أوقفت دوران الدم في أوعيته بعدما أجراه فكر هارفي مع أنّ ذلك حبس وذاك سرق وهذا شجب وذا اضطهد"[liii].

---

[5]7- كارل ماركس، الحرب الأهلية في فرنسا موسكو، دار التقدم، 1969، الجزء 2، ص.ص.190-.192

[5]8- كرم الحلو، مرجع سابق، ص. .192

[5]9- فرنسيس مراش، يوم باريز، مجلة الجنان، 1870، ص.ص. 150-.151

[6]0- فرنسيس مراش، "التمدن المتوحش"، مرجع سابق، ص. .233

[6]1- فرنسيس مراش، رحلة باريس، مرجع سابق، ص. 124.

الخاتمة

يمثّل فكر فرنسيس مراش محطة تأسيسية بالغة الأهمية في الفكر العربي الحديث في لحظة صدامه بالآخر الغربي واكتشاف تأخره التاريخي وأزمته الحضارية المستفحلة في مواجهة الغرب الزاحف بأفكاره وترسانته التقنية والعلمية والعسكرية والتجارية. يقول جابر عصفور: "كان مرّاش واحداً من العقول الاستثنائيّة التي حلمت بالنهضة وسعت إلى تأسيس الحضور المحدث للمجتمع المدني الذي كان أملا أكثر منه واقعاً في الوقت الذي كتب فيه أمثاله"[liv]. كان فرنسيس مراش أول من أسس فكره السياسي والاجتماعي على الحرية بين مفكري عصر النهضة العربية، التي وضعها في إطار فلسفي وانساني وجعلها تتصدر اهتمامات الأمم، التي تروم القطع مع ظلامية القرون الوسطى إلى أنوار التمدن والترقي في العصور الحديثة. كما أنّ فرنسيس مراش هو أوّل مفكر عربي حديث يدين الرق إدانة مطلقة على أساس الحق الطبيعي، بعد أن صاغ نظريّتي "العقد الاجتماعي والحق الطبيعي" على نحو مترابط إذ أنّ هذه الصياغة تكاد تكون مفقودة في الميراث التنويري العربي الحديث، وتبدو أهميّة ذلك في أن مرّاش أعاد صياغة أهمّ نظريّة في الثورة الفرنسيّة وحوّلها إلى فلسفة سياسيّة كما أنّ مراش أول المنادين بالرابطة الوطنية المنزهة عن الأغراض الوطنية وبالرابطة القومية الحضارية للعرب القائمة على وحدة اللغة والتراث بدلا عن التعصب الديني والفتن والنزاعات الطائفية.

يعتبر مراش في طليعة النهضويين العرب الذين طرحوا بالحاح مسألة المشاركة السياسية والاجتماعية للطبقات الكادحة في اتخاذ القرار وتقرير المصير بدلا من العيش على هامش المجتمعات وهو ما جعله يغير موقفه من حضارة الغرب في اشارة استباقية إلى نقد الحداثة الغربية الناشئة آنذاك والمزهوة بانتصاراتها وفتوحاتها داخل أوروبا وخارجها، فقد كان أول من ألصق في الفكر العربي الحديث صفة التوحش بمدنية الغرب في مقالته الشهيرة "التمدن والتوحش" في إشارة إلى انحراف الغرب عن قيمه الليبرالية الانسانية وفي نقد صارخ لانحرافات الحداثة الغربية ونتائجها الكارثية على مجتمعاتها وانخراطها في المشاريع الكولونيالية.

---

[1] جابر عصفور، مقدمة كتاب غابة الحق لفرنسيس مراش، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، 2001

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية:

باروت، محمد جمال، (1994)، حركة التنوير العربية في القرن التاسع عشر: حلقة حلب، دراسات ومختارات، دمشق، وزارة الثقافة.

الحلو، كرم، الفكر الليبرالي عند فرنسيس مراش: بنيته وأصوله وموقعه في الفكر العربي الحديث، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

الدباغ، عائشة، (1972)الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حلب، دار الفكر.

دي طرزاي، فيليب، (1913)، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية.

زيدان، جرجي، (1973)، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، دار الهلال.

سليم، مريم، وآخرون، (1999)، المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

عبد المقصود، السيد سمير، (2003)، الشوام في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

عصفور، جابر، (2001)، مقدمة كتاب غابة الحق لفرنسيس مراش، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر.

عماد، يوسف فرج، (1998)، الحركة الأدبية في لبنان خلال القرن الثامن عشر، بيروت، دار الحداثة.

قسطاكي حمصي، (1925)، أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، حلب، المطبعة المارونية.

كوثراني، وجيه، (1988)، السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، سلسة أطروحات الدكتوراه، 13، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

الكيالي، سامي، (1959)، الأدب المعاصر في سوريا، 1850–1950، القاهرة، دار المعارف.

المحافظة، علي، (1975)، الاتجاهات الفكرية في عصر النهضة 1998–1914: الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع.

مراش، فرنسيس، (1870)، مشهد الأحوال، بيروت، المطبعة المارونية.

مراش، فرنسيس، (1870)، يوم باريز، مجلة الجنان.

مراش، فرنسيس، (1871)، سياحة العقل، الجنان، المجلد الأول، السنة الأولى، الجزء الثاني، 15.

مراش، فرنسيس، (1972)، مرآة الحسناء، بيروت، مطبعة المعارف.

مراش، فرنسيس، (1865)، غابة الحق، حلب، المطبعة المارونية.

مراش، فرنسيس، (1870)، التمدن المتوحش، بيروت، مجلة الجنان.

مراش، فرنسيس،(1862)، دليل الحرية الانسانية، حلب.

مراش، فرنسيس،(1867)، رحلة باريس، بيروت، المطبعة الشرقية.
مراش، مريانا ، (1893)، بنت فكر، بيروت، المطبعة الأدبية.
منير،موسى، (1973)، الفكر العربي في العصر الحديث، (سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام 1918)، بيروت، دار الحقيقة.
الكتب المترجمة:
لوتسكي، فلاديمير، (1971)، تاريخ الأقطار العربية، ترجمة د .عفيفة البستاني، موسكو، دار التقدم.
ليفين، (1978)، الفكر الاجتماعي والسياسي في لبنان، سوريا ومصر، ترجمة بشير السباعي، بيروت، دار ابن خلدون.
ماركس، كارل، (1969)، الحرب الأهلية في فرنسا موسكو، دار التقدم، 1969، الجزء 2.
المقالات:
زهر الدين، صالح، "نهضوية الأمير شكيب أرسلان"، الفكر العربي، العددان 39 – 40، سنة 6، 1985.
شعراوي، أنطوان، "آل المراش والصالونات الأدبية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، مجلة الضاد، حلب، العدد التاسع، سبتمبر، 1990.
الشيخ، خليل، (1988)، " صورة باريس في الأدب العربي الحديث"، عالم الفكر، السنة 19، العدد 2.
فارح، مجدي، (2008) مراجعة كتاب محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث، المقدمة، المجلة التونسية لعلم الاجتماع، تونس، العدد 2، ديسمبر.
فارح، مجدي، (2008)، "تطويع اللغة والاصطلاح لخدمة النهضة والإصلاح: دراسة في تجربة الترجمة عند الطهطاوي"، مجلة *المشكاة*، جامعة الزيتونة، العدد السادس.
المراجع بالغة الفرنسية:
Majdi Fareh, *Confrontations et rencontres culturelles entre l'Orient et l'Occident en Egypte : de la Révolution et de l'expédition françaises à la renaissance égyptienne (fin XVIIIème - milieu XIX ème siècles),* Fichier national de reproduction de thèse, ISSN : 0294-1767, 431 pages, Université de Lille III, 2006.
Majdi Fareh, *Les Egyptiens et les Lumières pendant l'expédition de Bonaparte*, Mémoire de DEA en Histoire, Université de Rouen, 2000